ظواهر التجديد في العصر الاموي

المدرس المساعد : حنان عبد الهادي أمين
hananabd@uomustansiriyah.edu.iq

إن الحديث عن ظواهر التجديد في الشعر العربي موضوع شاسع وكبير ولا يكفي بحث صغير بالإلمام به وحينما يسمع القارئ التجديد في الشعر العربي يأخذ الذهن والتفكير صوب الشعر الحديث؛ لكن في الحقيقة الشعر يتجدد بتجدد الحياة فينا ؛ وفي هذه الوريقات سنسلط الضوء على ظواهر التجديد في العصور القديمة منها العصر الأموي ومرورا بالعصر العباسي ؛ وعرف مصطلح التجديد بأنه مأخوذ من الجدة والابتكار والتطور والتغيير هو يقابل المغايرة : ((ونقيض الالتزام ويراد به تحريك الثوابت القارة ومحاولة الخروج من النمطية والقوالب الثابتة)).

فالتجديد والحداثة والتطور هو في الأصل : ((حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم ولا تكون وفقاً على زمن دون آخر ، فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الاشياء ، يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة على السلفي والمألوف)) بمعنى أن التجديد والتغير وحداثة المجتمع تنسحب إلى الشاعر والشعر مما يجعله يتجدد فالشاعر ابن بيئته فهو مرتهن بمسايرة الواقع ؛ لكن هنا نتساءل هل حدث تجديدا في ظواهر الشعر الأموي في بناء القصيدة شكلاً ومضموناً؟؟؟

نحن نعلم أن للتجديد اوجه عدّة منه في المعنى ومنه في اللفظ الشكل أو هيأة/ هيئة القصيدة ؛ لكن في الواقع أن شكل القصيدة العربية على مر هذا العصر وحتى العباسي ظلت مقلدة ومتبعة للشكل الفني للقصيدة الجاهلية؛ وما حدث من تجديد هو عند المولدين في العصر العباسي ، بمعنى حصل تجديد لكن في المضامين والمعاني لا في شكل القصيدة (بالأخص العصر الأموي)، لأنه كما يرى النقاد أن ((الحداثة " التجديد" لم تقترن بعصر بعينه فـ امرؤ القيس كان حديثا في نظر السلفين من أبناء عصره فهو المجدد الأول إذ إن الحداثة إبداع وخروج به على ما سلف وهي لا ترتبط بالزمن إذ ليس من الضرورة اختلاف الشعر كليا عن الشعر الذي سبقه كي يحقق الحداثة ولكن الأهم هو أن يؤسس الشاعر تجربة فريدة متميزة مضمونا وشكلا ومعبرة عن العصر والحداثة في الشعر لا تمتاز بالضرورة على القدامة فيه ولكنها تفترض بروز شخصية شعرية جديدة ذات تجربة حديثة معاصرة وهذه التجربة فريدة تعرب عن ذاتها في المضمون والشكل معا))

فأمرؤ القيس أوّل من وقف واستوقف وبكى واستبكى ، المقولة المشهورة التي تحدث عنها ابن سلاّم في طبقاته فأصبح امرؤ القيس المبدع الأول أو المثال الذي يحتذى به للشعراء اللاحقين؛ بمعنى أن الحداثة لا تقتصر على تغير شكل الشعر كاملاً كما حدث في العصر الحديث بتقديم مثلاً الشعر الحر أو قصيدة النثر ؛ بل يكون في الصور والمعاني.

فما حصل في العصور القديمة من تجديد في الشعر هو في المضامين وبالاخص الشعر الأموي وذلك راجعاً إلى عدّة أسباب منها الالتزام الديني والخلقي . فالتغيّر يسير في أغراض الشعر ,مثلاً ((فقوي النسيب وكان ضعيفاً واصبحت قصائد , واشتدّ الهجاء حتى أفحش , وبزغ الشعر السياسي في العراق والشام , وكل ذلك في حدود الشعر الغنائي ,أمّا المعاني فتعمقت لتشمل الحكم والأمثال , وإن بقى تسلسلها المنطقي ضعيفاً كجاهليتها في منزع التحليل , والألفاظ فعذبت وهذبت , إذ أثّر القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة -اللذان وحّدا لغة العرب في بودقة لغة قريش - في أساليب شعرائه , من كعب بن زهير حتى الفرزدق وجرير وكثير والكميت ولكن ظلّ نهجه الجاهلي من غناء ورسوم وروح وشعراء عرب بدويين إلاّ ثلاثة أو أربعة , لذلك احتج بهم اللغويون والنحويون , والأخيلة فاتسعت لاحتكاك العرب بمدنيات الأمم الأخرى , وبالبيئة الجديدة المنبثقة ولو إلى حدٍّ ما , والعاطفة فتشربت برداء العزّة والفخر بسبب الفتوحات الإسلامية العربية , ومن هنا أصبح للشعر قيمة تاريخية ونضالية , ومن الجدير ذكره في عصر صدر الرسالة قد خفتَ التفاخر والتنابز , لأن الإسلام رفع لواء السواسية بين الناس , وعدم التمايز بينهم , وحارب العصبية القبلية ونادى بالولاء للإسلام والمسلمين , لا للقبيلة والقبليين , ومن هنا ينطلق الدكتور ضيف بعيداً ومن بعد الفتوحات الإسلامية بقوله : " و شتان بين عربي الصحراء القديم و عربي العصر الأموي الذي ورث كسرى وقيصر ،و خرج من صحرائه و نزل الشام و العراق وغيرها من الأقاليم الإسلامية ", ومع ذلك بقت القصائد الجاهلية هي القالب الأساسي والأنموذج القياسي للشعر العربي الأصيل من حيث الوزن والقافية حتى عصور وعصور , وإلى يومنا هذا ما زالت البحور ...!! فالترابط بين القديم والحديث ضرورة إبداعية لا مناص منها لترابط اللحظات , وانبثاق الذكريات الشعورية واللاشعورية ؛ والشعر الأموي عموماً تأثر بالحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مع تطورها من حيث الفرق الإسلامية المتشعبة فرضاً كالخوارج والزبيريين والأمويين والشيعة الإمامية والكيسانية والزيدية والطبقات بكادحيها و ارستقراطيها , ومواليها , هؤلاء بشعوبيتهم , والعرب بعصبيتهم وفخرهم , والاقتصاد بأمواله ومغانمه من سبايا الفتوحات وجواري المشتريات , وبالتالي ما يفرز من مجون عابث , وتقشف زاهد وغناء طروب , كل ذلك صوره

الشعراء أروع تصوير ففي كلّ وادٍ هيام وأنغام ولوعة وتعبير , فعندما تسلّط الأمويون شجّعوا مرّة أخرى على تأجيج النزعة القبلية , فعاد الشعر إلى جاهليته على وجه من الوجوه من حيث التفاخر والخصومات والنقائض , وقامت أسواق جديدة من أجل ذلك تضاهي سوق عكاظ الجاهلي كسوق (المربد) في البصرة , و(الكناسة) في الكوفة)) .

ومن أبرز ظواهر التجديد في العصر الأموي هي :

1- ظاهرة الزهد والنسك والوعظ والإرشاد .

وهذا طبيعي لتوارث الدين (حفظ القرآن والاحاديث النبوية) والالتزام الديني الذي دعا إليه الرسول الكريم (ص) فتأثر الشعراء ووظفوها في اشعارهم في مضامين الحكم والوعظ , وعكسوها في لحظات تأملية , ووقفات تدبّرية للكون المحسوس , فمثلا الفرزدق لما ماتت النوار امرأته ودفنت، وقف الفرزدق على قبرها ومن المتعارف عن الفرزدق عرف عنه التملق والاستهتار والمدح والهجاء لكنه في الوعظ والرثاء يقول:

أخاف وراء القبر-إن لم يعافني-***أشدّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ *** عنيفٌ وسواقٌ يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى***إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلاً *** * سرابيل قطران لباسا محرقا

فنجد ان الطابع الديني في العصر الأموي كان ينسجم مع (الاحاديث النبوية الشريفة وآيات القرأن ، فالشعر جاء متمما لمكارم الأخلاق)

2- النقائض :

تعني: أن يتوجه الشاعر بقصيدة يهجو بها شاعراً آخر، ويسخر منه ومن قبيلته، ويفخر بنفسه وقومه وبما لهم من أمجاد ومكانة، فيجيبه الشاعر الآخر بقصيدة وغالباً ما تكون القصيدة الثانية على وزن القصيدة الأولى وعلى القافية نفسها- ناقضاً كثيرا مما جاء به الشاعر الأول من معانٍ وصور مضيفاً إليها فخرا أو هجاءً.

وقد احتل فن النقائض مكانة بارزة في التراث العربي، وعُرف بلون من السخرية والفكاهة والطرافة منذ العصر الجاهلي، إذ تناقله الشع راء بين القبائل، وقد وردت النقائض أو السخرية في الشعر الجاهلي بشكل محدود وكانت هذه الظاهرة تتمظهر خاصة في الهجاء، حيث قويت المنافرات والمشاحنات، لكنها بقيت متصلة بنظام القيم، ممتزجة بالتهكم والإضحاك، أما ما كان سباً وشتماً وتعريضاً، فهو هجاء ولم تكُن الحربُ ميداناً للقتال فحسب، بل كانت سبباً مباش را لظهور فن النقائض الذي فظ مباشر ، نما وترعرع في أجواء المعارك، فقبل كل حرب أو بعدها تكون المناقضة تهديداً ووعيداً أو فخرا.

إذاً النقائض في الشعر هي معارك أدبية تعني ردود المتخاصمين على بعضهم بقصائد هجاءٍ للخصم وفخرٍ بالنفس تأتي الردود على الوزن نفسه , والقافية عينها , ولكن المضمون أشدّ مضاضة , وأكثر قذعاً وهذه الظاهرة كانت معروفة في العصر الجاهلي كما قلنا , فالحروب كانت سجالاً بالسهام والكلام , وخفتْ في صدر الإسلام لخفوت العصبية القبلية فانحصرت بين شعراء المدينة المدافعين عن الإسلام وشعراء مكة المتمسكين بالأصنام , وبرزت بشكل عنيف ومستجد وشغلت المساحات السياسية والاجتماعية والقبلية في العصر الأموي , الخلافة تسعى لتأجيجها حتى ينشغل الناس بها ويعكفون عن تناولهم السياسة والسياسين ووجد فيها الأدباء والشعراء مادة تحفز العقول , وتثير الأحاسيس , وتشجع على المحاورة والمناظرة والمقابلة ,وتنمي الانفتاح الفكري , والإيحاء التخيّلي , والتصوير الفني, وتحث على معرفة الأنساب , وأيام العرب ومثالبهم ومحاسنهم , وتثري اللغة وقواعدها وصرفها , و الحقيقة امتدت مجالاتها واتسعت من أفق الهجاء والفخر لتشمل النسب والولاء والغزل والسياسة والمديح والرثاء والسخرية ... , بل تعرض شعراء النقائض للأعراض , وولجوا للحرمات بعبارات تؤثر التصريح لا التلميح , مما ساعد على بروز هذا الفن المليح !! شغلت الخواص والعوام في عصرها للنهل من المعرفة , والتسلية . وقد استمرت هذه النقائض إلى وفاة الفرزدق.

يمكن القول : إن ما وجد من ظواهر جديدة في العصر الاموي هو لم يكن جديدا بل هو تطوير وتغير بتطور الحياة لكي يصبح ملائما لما يلائم الأمر السياسي أو الاجتماعي والفني ، ولا يمكن لهذه المحاضرة الايفاء بهذه الظواهر وما أوردناه هو عرض بسيط لها .